اخـــوان الصفا ورسائلهم

للدكتور حسين الهمداني

الدكتور حسين الهمداني أستاذ متخصص في التاريخ الإسلامي، وهذا البحث مما عني بدراسته عناية خاصة؛ وقد ألقاه في رابطة الأدباء بالقاهرة، ومما تخصص فيه الدكتور الهمداني بحث الدعوة الاسماعيلية باليمن. وآثاره في هذين الموضوعين معروفة في البيئات العلمية العربية والاستشراقية وله بحوث قيمة في عدة مؤتمرات عقدت بلندن وبألمانيا

أعتقد أن البحث عن « اخوان الصفا ورسائلهم » — على رغم كثرة ما تعرض له الكتاب طيلة مئات السنين الفائتة، مرغم تعدد الآراء والنتائج التي استخلصت منها — لا يزال بحثا غامضا يشوبه كثير من الابهام، ويكتنف جنباته مزيد من التشكك والارتياب سواء كان ذلك من ناحية شخصية الاخوان أنفسهم الذين ألفوا الجماعة، أو كان من ناحية الأهداف التي كونوا أنفسهم وعاهدوا الله على تحقيقها ...

ولم يصادف التاريخ في حقبة من حقبه جماعة كهذه الجماعة، ظل أمرها خافيا على الناس ملتبسا عليهم. وكثيرا ما قامت في الشرق والغرب جماعات سرية، دينية أو علمية أو سياسية أو ارهابية وكثيرا ما كانت تعمل في الخفاء، لا تعلن عن نفسها، ولا تفصح عن حقيقة أعضائها، ولكنها بعد وقت، طال أو قصر ظهرت، وعلم الناس من أمرها كل خافية ... إلا جماعتنا هذه، فانها بقيت إلى اليوم موضع الشك ومثار الابهام والجدل وموطن الدهشة والغرابة.

ولكن يمكن أن يقال نتيجة لما انتهى بنا من بحوث الأقدمين وأحاديث الرواة، إن هذه الجماعة كانت مجموعة من علماء البصرة، تعاهدوا فيما بينهم في أواسط القرن الرابع الهجري، على إحداث حدث جديد، يقلب الأوضاع التي كانت سائدة، والنظريات المتوارثة، دينية كانت أو سياسية عقلية أو نظرية أو مادية ...

ولكن: كيف تسقط الترجمة الراقية هذه؟؟

لدينا حكمة قديمة، ولكنها متجددة نابضة على مر القرون، حكمة قالها حكيم اليونان: إعرف نفسك ... وإذا حصرنا حكمته في دائرة الفن، نجد المقصود بها أن يتجرد الفنان من خيالاته وأوهامه، يحلل كل قضاياه، يعرف كيف ينبع التيار النفسي أو من أين ينبع

ومتى عرف ذلك استطاع أن يضع نفسه موضع الآخرين، فتصبح ذاته — وقد تحققت — هي الذات التي تفهم تجارب النوع الإنساني كله.

فالفن في أبسط تعاريفه: تجربة وانفعال في مضمون واحد، وإزاء هذا لابد أن نكون صادقين حينما نحس، وحينما نتأمل، وحينما نعبر، هذا الصدق الذي لا يصور الواقع تصويراً فتوغرافياً، ولكنه يبدو في الإحساس بالواقع — مجرداً من كل نفاق: وهل كان النفاق في عالم الفن إلا العجز الناجم عن غموض الموضوع لدى الفنان نفسه؟ هل كان سوى العجز الذي يعني أنه لا يفهم نفسه ولا يفهم موضوعه، ولا يمكن أن يكون صادقاً بغير فهم لهذين

وهذا هو الصدق الفني.

وبوصولنا إليه نجد أنفسنا إزاء النتيجة الأخيرة في هذا الموضوع المتشابك: فالتعبير الصادق، يدفع بجزئيات الموضوع في تتابع صادق، ومتى شاركنا الفنان في فنه الصادق هذا نحس بالراحة النفسية بغير خديعة.

إن الفن هنا هو عالمنا. إننا نتنقل مع الموضوع في انسياب دائم، لا يوانيه تكسر أو خطوط شائهة، بينما كنا لا نحس الراحة النفسية في (الفن الترجمي)، لأننا نصدم بالنفاق في أكثر المواضع. كنا نصدم بأشياء غريبة عنا، أشياء لا نفهمها على نحو من الأنحاء.

وما دام هذا الفن عالمنا، فهو هذا الشيء المجرد من العوائق، هو هذا الشيء الحر، هو هذا الشيء الذي يحدث الراحة النفسية الصادقة، هو هذا الجميل، بل هو في كلمة واحدة: المطلق !! ...

صبحي شفيق

وأول من قال بهذا الرأى أبو حيان التوحيدى فى كتابه (الامتاع والمؤانسة) ثم جاء بعده جمال الدين أبو الحسن القفطى المصرى فأورد فى (تراجم الحكماء) كلاما طويلا ، بل تسجيلا كاملا للحديث الذى جرى عام ٩٨٣ ميلادية بين أبى حيان وبين وزير لصمصام الدولة ، الذى خرج منه بنتيجة هى أن زيد بن رفاعة تعهد وهو بالبصرة مع جماعة بينها أبو سليمان محمد بن معشر البستى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هرون الزنجانى . وأبو أحمد القفطى كان أمينا وحذرا فى الرواية ، فانه لم يخف فى كتابه شكه فى حقيقة الجماعة فقال : « ولما كتم مصنفوها أسماءهم ، اختلف الناس فى الذى وضعها . فكل قوم قالوا قولا بطريق الحدس والتخمين ، فقوم قالوا : هى من كلام بعض الأئمة من نسل على بن أبى طالب كرم الله وجهه واختلفوا فى اسم الإمام الواضع لها اختلافا لا يثبت له حقيقة . وقال آخرون هى تصنيف بعض متكلمى المعتزلة فى العصر الأول » . والغريب أن القفطى اعترف بامكان نسبة الرسائل إلى الأئمة العلويين ، كما اعترف بوجود مذاهب أخرى ، مع أنه استند كثيرا فيما قال إلى كلام أبى حيان .

ولكن يتبين من كل هذا أن تاريخ انشاء الرسائل تراوح بين سنة ٣٣٤ و ٣٧٣ هجرية وأن مدينة البصرة كانت مركزا للجماعة . ولكن لو بعدنا عن القفطى لأعوز هذه النتائج كثير من الأدلة والشواهد . ومما يذكر أن الاخوان تحاشوا ذكر اسم البلدة كما لم يذكروا التاريخ .

وهناك رأى فى أن هذه الرسائل ألفها مسلمة المجريطى سنة ٣٩٨ هـ لأنه قال فى كتاب (رتبة الحكيم) ما يأتى : « وقد قدمنا من التأليف فى العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية رسائل استوعبناها فيها استيعابا ، لم يتقدمنا فيها أحد من عصرنا البتة . وقد شاعت هذه الرسائل فيهم وظهرت إليهم فتنافسوا فى النظر إليها وحضوا أهل زمانهم عليها ، ولا يعلم من ألف ولا أين ألف غير الحذاق منهم ... »

ونحن لا نستطيع أن نسلم بهذه النظرية ؛ فكتاب « رتبة الحكيم » ثابت أنه ليس من تأليف المجريطى ، بل هو منسوب إليه فقط فقد أثبت العلماء أن هذا الكتاب ألفه شخص غير المجريطى لا نعرف اسمه بعد قرن من وفاة المجريطى . ومن الجائز أن يكون صاحب كتاب « رتبة الحكيم » يشير إلى رسائل أخرى ألفها على نمط رسائل اخوان الصفا ، وعلى كل فلو افترضنا أنه يريد من التأليف رسائل اخوان الصفا فالمجريطى ليس هو صاحب هذه التآليف .

وهناك رأى آخر وهو ما نادت به الدعوة الفاطمية باليمن وهو ينصب على أن هذه الرسائل ألفها أمام من الأئمة الفاطميين المستورين قبل ظهور المهدى بالمغرب هو أحمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق فى أيام الخليفة المأمون العباسى ، وأول من قال بهذا الرأى الداعى على بن محمد الوليد الأنف المتوفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦) ومن بعده الداعى ادريس عماد الدين المتوفى سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) ولا شك أن هذا الرأى يلقى ضوءا على الصلة بين الرسائل والحركة الفاطمية الاسماعيلية ولكننا لا نعرف شيئا عن هذا الأمام المستور وليس هناك ذكر لهذه الرسائل ، فضلا عن ذكر مؤلفها ، فى الكتب التى ألفت فى أيام الفاطميين فى مصر أو فى غيرها من البلاد الاسلامية .

ومما يثير شيئا من الدهشة أيضا أن الرسائل كانت خالية تماما من ذكر الفاطميين مع انتساب هذه الجماعة إلى دعوة أهل بيت النبى ؛ ومع أن الدعوة الفاطمية طرف متصل بالدولة الفاطمية التى بدأت فى المغرب وتسربت حتى مصر وسوريا فليست هناك شواهد داخلية أو خارجية ترمى إلى اثبات هذه النظرية أو الى صحة هذه العقيدة إلا أن يقال أن الصلة قوية بين الآراء والتعاليم التى تتضمنها الرسائل وعقائد الاسماعيليين ، وإلا أن الرسائل كانت مصطبغة تماما بالصبغة الاسماعيلية نفسها . وقد وصل إلى هذا الرأى كل المستشرقين أمثال كازانوفا ، ودى بور ، وجولد تزيهر ، وغيرهم . .

هذا وقد وجدت رسائل اخوان الصفا كلها كاملة فيما عدا (الرسالة الجامعة) وتعتبر أهمها ، حتى جاء المستشرق الفرنسى كازانوفا فى أواخر القرن الماضى ، وأعلن عثوره على نسخة خطية منها فريدة ، كانت صفحاتها الأولى مما تحمله من تعريف بها مفقودة تالفة ، فأخذ يدرسها ويبحثها حتى خرج من البحث إلى أنها (الرسالة الجامعة) وهنا أخذ العلماء يدرسون الرسائل من وجهة أخرى حتى اتجه الفكر أخيرا كما قال الأستاذ عبد اللطيف

الطيباوى إلى وجود صلة بين فلسفة اخوان الصفا من جهة وعقائد الاسماعيلية من جهة أخرى وهناك نسخ خطية من هذه الرسائل توجد فى مكتبة ميونيخ فى المانيا وفى دار الكتب المصرية ومكتبة المغفورله أحمد باشا تيمور وفى خزائن ولى الدعوة الفاطمية باليمن والهند . والغريب أن كل هذه النسخ منسوبة الى الحكيم مسلمة المجريطى ماعدا النسخ المحفوظة فى اليمن . وكانت الدعوة الفاطمية اليمنية تهتم برسالة الجامعة منذ أواخر عهد السلاطين الصليحيين اهتماماً بالغا . وقد عرفت الرسالة عندهم منذ القرن السادس وكانت تعرف باسم « الجامعة » وهم لا ينسبونها إلى المجريطى ، بل يقولون إن الرسالة الجامعة لب الرسائل وروحها ؛ وهي الرسالة المذكورة فى رسائل اخوان الصفا . وكان الداعى ابراهيم بن الحسين الحامدى المتوفى سنة ٥٥٧ هـ أول من أشار فى كتابه (كنز الولد) إلى الرسالة الجامعة فى عدة مواضع ونقل منها عبارات كثيرة .

ولهذه الرسائل أثر كبير فى اليمن ، حتى لكان الدعاة يعتبرونها بمثابة (قرآن الامامة) وقد ذكر الشيخ السبقى أنه سمع بعض العلماء يقول : ان رسائل اخوان الصفا هى القرآن بعد القرآن وهى قرآن العلم ، كما أن القرآن قرآن الوحى ؛ وهى قرآن الامامة ، وذلك قرآن النبوة .

وقد ادعى اخوان الصفا أن الرسائل تتضمن علوم بيت النبى (صلعم) . ويظهر هذا فى قولهم : (واعلم يا أخى بانا قد عملنا احدى وخمسين رسالة فى فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج ، لكيما إذا نظر فيها اخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها وعرفوا حقيقة ما هو مقرون بها من تفضيل أهل بيت النبى (صلعم) لأنهم خزان علم الله ووارثو علم النبوات تبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة ...)

وقالوا كذلك (من أراد أن يدخل مدينة العلم وجنة الدين فليأت الباب كما قال النبى : انا مدينة العلم وعلى بابها . ومن أراد أن يستفيد من هذه العلوم فعليه أولا معرفة الباب . وهى معرفة الحدود ، ومن عرف حدود الدين فقد دخل الجنة ، جنة الدعوة والدين الاختيارى إذ لا اكراه فيه)

٣٠ ، ٣٤

كل هذا الغموض وهذا الابهام الذى اكتنف هذه الرسائل مبعثه عدم افصاح الاخوان عن حقيقتهم ، وهذا طبيعى ، لأنهم كانوا جماعة سرية غرضها قلب النظام السياسى السائد فى العالم الاسلامى وقتئذ عن طريق التأليف ، أو عن طريق الاغراء على اعتناق الفكرة . لهذا سعوا إلى بث دعاياتهم فى رسائلهم هذه عن طريق الكلام ، متفادين اللجوء إلى أى اجراء آخر مما قد يعتمد عليه فى الانقلابات التى ذخر بها التاريخ — ولقد أرادوا تغيير الأوضاع وقلب النظريات عن طريق انشاء فلسفة جديدة تخلق جوا وأناسا جديدين بالنسبة للفرد وبالنسبة للجماعة . وكانوا فى هذا كله يسعون بجد واهتمام الى هدم بناء الدين القديم وتأسيس دولة الخير ؛ يصرف الأمور فيها علماء حكماء أخيار . وكانت كل أعمالهم ومحاولاتهم هذه تتم عن طريق خفى مقنع ، يمكن أن نقول عنها إنها أعمال كان يشوبها الغموض من كافة نواحيها .

وكانوا كذلك يحاربون أهل الفكر المتزمت ، ويطالبون بحرية الفكر وحرية القول وحرية الفرد . والغريب أنهم كانوا يطالبون بتحقيق أمور هى فى يومنا الحاضر هدف الناس وهدف الساسة ؛ وكأنهم استشفوا منالبق الغيب وعرفوا أن العالم لا يصلح إذا وضع زمام الأمور فى أيدى الشيب « الذين اعتنقوا الآراء الفاسدة والعادات الردية والاخلاق الوحشية مع استبعاد الشباب السالمى الصدور ، الراغبين فى الآداب ، المبتدين بالنظر فى العلوم . »

والكلام عن الرسائل وما جاء فيها كلام طويل ، إذ تضمنت كثيرا من العلوم الفلسفية والهندسية والشرعية والأدبية كما تضمنت غرائب الحكم وطرائفها ولسنا اليوم بسبيل التحدث عنها وانما نستطيع أن نتكلم عن ناحية أخرى من هذه الرسائل ولو أنها ليست فى صميمها ، وانما تدور حولها .

فقد قصد الاخوان من وضع رسائل الدعوة لمذهب سياسى ودينى جديد ، ولكنهم عرفوا أنهم إذا ما قاموا بدعوتهم سافرة فانها تكون عرضة للقيل والقال ، كما تكون عرضة للجدل الرخيص . فآثروا أن يبثوا دعوتهم فى تضاعيف أمور أخرى ويقدموها دواء للناس داخل غطاء ، فكانوا يبثون دعوتهم فى صور مقالات أدبية ، وطورا فى مباحث دينية ، لا تحمل صبغة الدعاية ولكنها تظهر بمظهر البحث العلمى أو الأدبى .